

أن نزع أن أميناً نظر إلى النهضة الأدبية في مجملها بشيء من التوجس . كانت روح المعرفة الجزئية الدقيقة تنقصها . وكانت المعرفة الجزئية هم أمين حينما ثار على تاريخ الأدب . . . وذات يوم كنت أسأله في هذا فقال : يجب أن يحرم تاريخ الأدب بقانون . المجتمع الأدبي قلق يريد أن يستوعب الكثير في وقت قليل ، يريد أن يصنع التاريخ أو الذاكرة التي تحفظ الإنسان من الضياع . ولكن هذه العبارات لم تكن تخلب عقل أمين ، فالذاكرة يجب أن تصنع على مهل . . . وصناعتها هي إحياء دراسة النص القصير في أناة ، وتعبد هذه الدراسة جيلاً بعد جيل . وأحسب أن صوت أمين في هذا المجال ما يزال يرن في أذني . كان النص المفرد قبلته ، ومن أجل ذلك عنى بطائفة من الأسس والممارسات التي تستحق التذكر . كيف السبيل إلى هذا النص ؟ أليس النص خلاصة نصوص وآفاق . كان أمين يعرف أن الطريق وعمر ، ولكن هذا لا يحول دون التجربة الحذرة ، والتقرب إلى الألفاظ في بطن شديد . ومن الغريب حقاً أنه كان يعتمد أمام بعض النصوص أن يحيل على حياة اللفظ الواحد في المعجم العربي كله . هذا اللفظ الذي تناوله الشراح بطرق قد تختلف بعض الاختلاف . . . وكانت فرحة الأستاذ أمين بهذا الاختلاف واضحة في قاعات الدرس .

لندكر مرة أخرى أن الأستاذ أميناً كان يعرض مادة اللفظ كلها ، لا يخفي منها شيئاً في القراءات الأولى ، وبعبارة واضحة كان العلم باللفظ هو ذلك العلم الحقيقي الذي شجع على إهماله الخوض في تاريخ الأدب . وهكذا استقر في الذهن بطريقة عملية أن اللفظ عالم واسع مركب يجب أن يحيط المرء بما يستطيع من جوانبه قبل أن يدخل على النص المرجو . .

حياة اللفظ إذن أو دورته بين دلالات متناسقة أو غير متناسقة أهت عقل الأستاذ أمين . رأى زملاءه الرواد يعرضون عنها بعض الإعراض ، على حين يراها هو لباب المعرفة ، ولباب التجديد كله . كل شيء يستحيل إلى الخبرة بدلالات الألفاظ . . . ولكن هذه الدلالات مطلب عسير حقاً . لا يحتاج المرء إلى أن يذهب إلى طرائق العلماء ، واختلافاتهم في تحديد الدلالة . يكفي أن يقرأ المعجم المطول ، وأن يقارن بين ما ورد في معاجم قصيرة ومتوسطة ومفصلة ، وأن يقرأ المادة قراءة يقظة حساسة ، وإذ ذاك يخرج إلى نتيجة قاسية ملهمة . . إن علمنا بالألفاظ علم سطحي ، وإن خبرتنا بتطورات اللفظ وتقلباته تحتاج إلى شحذ ومعالجة ، هذا كان هدفاً أساسياً من أهداف تعليم الأدب . أما ان نستيق معالي ما قد نسقيه ذوق العصر أو فقه البديع أو حساسية